رسالة الى غوغول

فيساريون بيلينسكي

لقد كنت على بعض حق وانت ترى في مقالي عنك انسانا مهتاجا : فهذا النعت أضعف وأرق من أن يعبر عن الحالة التي جعلتني فيها قراءة كتابك . الا أنك لم تعد على حق مطلقا حين الحقت هذه الحالة بتقويماتك ، المتملقة بعض الشيء ، والموجهة الى المعجبين بموهبتك . كلا ، ان السبب لأعمق من ذلك . واني لا أزال قادرا على تحمل مس بكبريائي الشخصي ، وكنت ساكون ذكيا بما فيه الكفاية لأن اصمت لو ان الأمر لم يتعلق بغير ذلك . لكن لم يعد بمستطاعي أن اتحمل مسا بحبي للحقيقة وباحساسي بالكرامة الانسانية ، ولا بمقدوري أن اصمت وأنا أرى شخصا يبشر ، تحت رداء الدين وحماية السوط ، بالكذب والفجور وكانهما الحقيقة والفضيلة .

أجل ، لقد أحببتك بكل الحمية التي يستطيع انسان شديد التعلق ببلده أن يحب بها ذاك الذي هو أملها ، شرفها ومجدها ، أن يحب بها أحد أعظم الرجال الذين يقودون هذا البلد في طريق الوعي والتطور والتقدم . الا أنك ـ وقد فقدت الحق في هذا الحب ـ أصبحت تتوفر على سبب حقيقي لأن تخرج ، ولو للحظة ، عن هدوئك ! ليس لاني أعتبر حبي مكافأة لعبقرية عظمى ، ولكن لأني ، بهذا الصدد ، لا أمثل فردا وحسب ، وانما حشدا من الاشخاص الذين لم يسبق لاغلبهم أن راى بعضه بعضا ، ولم يسبق لهم قط ، من جهتهم ، أن راوك . ولست في الوضع الذي يسمح لي بأن أعطيك ولو أدنى فكرة عن السخط الذي اثاره كتابك في كل القلوب النبيلة ، ولا في الوضع الذي يسمح لي بأن أعطيكها عن صيحات الفرح المتوحش التي أصدرها من كل اعدائك : التشيتشيكوفيين والنوزديفيين **والكورودنيتشيين** ،،، الذين لا ينتمون الى عالم الأدب ،،، أو من الذين ينتمون اليه ، وانت تعرف جيدا اسماءهم ! انك ترى بنفسك أن كتابك يتنكر له حتى أولئك الذين تتطابق آراؤهم ، ظاهرا ، معه . بل وحتى لو أن الهامه نبع عن اعتقاد راسخ ، عميق

ومخلص ، فانه لم يكن ليثير لدى الجماهير سوى انطباع مماثل . واذا كان كل الناس (باستثناء قلة منهم ، تكفي رؤيتها ومعرفتها لان لايغتبط المرء برضاها) قد رأوا فيه عملا أمهر من أن يصل ـ بوقاحته البالغة ـ ، عبر السماء ، الى هدف أرضي خالص ، فلا تلومن الا نفسك ! وما في ذلك شيء من العجب ، انما العجب أن تعجب منه ! ولعل هذا يعود ، دون شك ، الى أنك لا تعرف روسيا بعمق الا كفنان ، وليس كانسان يفكر ـ مع أن هذا هو الدور الذي اضطلعت به ، لسوء الحظ ، في كتابك العجيب . ولا يعود الى أنك لست بالانسان الذي يفكر ، ولكن لانك اعتدت ، ومنذ سنوات مديدة طويلة على النظر الى روسيا من **بعدك الجميل** . والسنا نعلم أن لا شيء أسهل في البعد من رؤية الاشياء كما يرغب المرء في رؤيتها ؟ انك غريب تماما بهذا **البعد الجميل** الذي تعيشه بداخلك ، مطويا على ذاتك ، أو في رتابة وسط يماثل وضعه الروحي وضعك ويتميز بعجزه عن مقاومة التأثير الذي تمارسه عليه . لهذا السبب لم تلحظ أن روسيا تنظر الى خلاصها لا في التصوف ولا التنسك ولا التقوية وانما في تقدم الحضارة والمعارف والانسانية . وأن ما يلزم روسيا ليس خطب الوعظ والارشاد (فقد سمعت منها ما كفاها) ولا الصلوات (فقد كررتها بما فيه الكفاية) ، وانما هو أن يستيقظ في الشعب احساس الكرامة الانسانية الذي مرغ لقرون وقرون في الوحل والقاذورات ، هو الحقوق والقوانين المطابقة لا لعقيدة الكنيسة وانما للعقل السليم والعدالة ، ثم هو تطبيقها الصارم ما أمكن . غير أن روسيا ، بدل ذلك ، تقدم لنا مشهدا مرعبا لبلد الناس فيه مجرد تجار رقيق أحط من أن يمتلكوا حتى ذلك التبرير الخادع لزارعي أمريكا والذي يؤكد على أن الزنجي ليس بالكائن الانساني ، مشهدا مرعبا لبلد الناس فيه بدل أن يلقبوا باسمائهم يلقبون بـ **فانكا ، فاسكا ، ستيشكا ، بالاشكا** ، وأخيرا ، مشهدا لبلد لا يوجد فيه أي ضمان للشخصية ، للشرف وللملكية ، ولا حتى نظام بوليسي ، حيث لا شيء سوى الطوائف التي لا عد لها من الموظفين اللصوص والنهبة من كل شاكلة وصنف . ان المسائل الوطنية الاكثر آنية والاكثر الحاحا ، اليوم ، في روسيا هي : الغاء القنانة ، ازالة العقاب الجسدي ، والتطبيق الصارم ما أمكن للقوانين الموجودة ذاتها . ان الحكومة نفسها قد ادركت ذلك (الحكومة التي تعرف جيدا ما يسمح به الملاكون العقاريون لانفسهم تجاه فلاحيهم ، وكم من هؤلاء ينحرون كل سنة) ، كما تؤكد ذلك أنصاف الاجراءات الخجولة والعقيمة التي اتخذتها لصالح العبيد البيض ، والاستبدال المضحك للسوط ذي السيور الثلاثة بسوط الجلد الواحد .

هذه هي المسائل التي تحرك روسيا في تهويمتها الخاملة ! وفي لحظة مثل هذه انما يقوم كاتب كبير ـ عرف باعماله الرائعة والصحيحة الى حد كبير كيف يساعد روسيا بقوة على أن تعي ذاتها وعلى أن تنظر الى نفسها

وكأنها أمام مرآة ـ باصدار مؤلف يعلم فيه ، باسم المسيح والكنيسة ، للملاك العقاري المتوحش كيف يستخرج من فلاحيه أكبر قدر من النقود ، وينعت هؤلاء الأخيرين بالافظاظ القذرين !.. ألا يكفي هذا لأن يثير غيظي وسخطي ؟.. انك لو حاولت الاعتداء على حياتي ما كنت لاكرهك أكثر من كرهي لك على هذه الاسطر المخجلة !.. وتريد منا بعد ذلك أن نظنك مخلصا في منزع كتابك ذاك ! لا تسخر منا ! فلو كانت قد نفذت اليك حقيقة المسيح ، لا تعاليم الشيطان ، لكنت كتبت أشياء أخرى في كتابك غير التي كتبت ! كنت ستقول للملاك العقاري أنه ، بما أن فلاحيه هم اخوانه في المسيح ، وبما أن الاخ لا يمكن أن يكون عبدا لاخيه ، فعليه اما أن يمنحهم حريتهم ، واما ان يستفيد من أعمالهم بالطريقة الاكثر ملاءمة لهم ، على الاقل ، معترفا في دخيلته بالخطأ البالغ لموقفه تجاههم . ثم ، من أي نوزديف ومن أي ساباكيفيتش سمعت تعبير « اذهب أيها الفظ القذر » لكي تقوم بايصاله الى العالم وكانه كشف عظيم لصالح ولاجل تنوير الموجيك (الفلاحين) الذين لا يغتسلون ، خاصة وقبل كل شيء ، لانهم ـ وقد آمنوا بما يقوله سادتهم عنهم ـ لم يعودوا يعتبرون أنفسهم أناسا . ومفهومك عن عدالة روسية ، وطنية ! ذلك المفهوم الذي وجدت مثاله الاعلى في المثل الروسي الاخرق القائل بانه ينبغي جلد البريء مثلما يجلد المذنب ! نعم ، فهذا يحصل غالبا عندنا ، الا أنه ، أيضا ، غالبا ما لا يجلد غير البريء الذي لا يتوفر على ما يفتدي به نفسه ! وهناك ، حسب الظروف ، مثال آخر يقول : غالبا ما يكون مذنبا من لا يستطيع الافلات من ذلك ! ويمكن لكتاب من هذا النوع أن يكون نتيجة لعمل باطني أليم وتجل روحي جليل ؟ لا تسخر منا ! فاما انك مريض ، وهنا ينبغي عليك أن تعالج نفسك في أقرب وقت ، واما أنك ـ لا أستطيع ان اقول لك كل ما أفكر فيه ! ـ مدافع عن السوط والجلد ، داعية للجهل ، بطل للظلامية ، ومقرظ للاخلاق التترية ... ماذا تعمل ؟ أنظر الى قدميك : انك على حافة الهاوية ! وأن تمزج مذهبا مماثلا بالكنيسة الارثوذوكسية فهذا شيء أفهمه بدوره : لقد كانت هذه الاخيرة دعامة السوط وخادمة الاستبداد المخلصة . لكن ، ما دور المسيح هنا ؟ ما هو الشيء المشترك بينه وبين الكنيسة ؟ والكنيسة الارثوذوكسية بوجه خاص ؟ لقد كان أول من أعلن للناس مذهبا للحرية والعدالة والاخوة ، مذهبا رسخه صلبه ، وأكد حقيقته . مذهبا لم يحمل للناس **الخلاص** الا حين نظمت الكنيسة وحين وضعت في أساسها مبدأ الارثوذوكسية . لقد كانت الكنيسة تراتبا هرميا ، ومن ثم فقد جعلت من نفسها بطلة للا مساواة ، وداهنت السلطة ، وحاربت الاخوة بين الناس واضطهدتها ، ولا زالت تقوم بذلك الى اليوم . ولم يكن ابراز المعنى الحقيقي لكلمة المسيح ليتم الا من طرف الحركة الفلسفية للقرن الماضي ، لذلك فان فولتيرا ما ، هذا الفولتير الذي

أطفأ في أوروبا محارق التزمت والجهل ، هو ابن المسيح ، جلد جلده ودم دمه ، أكثر من كل كهنتكم وأساقفتكم ورؤساء أساقفتكم وبطارقتكم ، سواء انتموا الى الكنيسة الكاثوليكية أو الكنيسة الاورثوذوكسية ! أمن الممكن انك لا تعرف هذا ؟ فما من تلميذ يجهله اليوم .

ومع ذلك ، هل يمكن انك انت ـ **كاتب المفتش و الارواح الميتة** ـ كنت مخلصا وأنت تلقي اناشيدك على مسامع الاكليروس الروسي المقزز واضعا اياه ، وبشكل غير محدود ، أعلى من الاكليروس الكاثوليكي ؟ لنسلم بانك لا تعلم واقع كون هذا الاخير قد سبق وكان شيئا ما في الماضي ، حين لم يكن الاول شيئا قط ، باستثناء خدمته وعبوديته للسلطة الزمنية ، لكن هل أنت تجهل حقا ان اكليروسنا هو موضوع احتقار لكل المجتمع وكل الشعب الروسي ؟ وان الشعب الروسي يحكي عنه حكايات ماجنة ؟ عن الكاهن وزوجة الكاهن وابنة الكاهن وخادم الكاهن ؟ اليس الكاهن ، في روسيا ، وفي أعين كل الروس ، رمزا للشراهة والبخل والدناءة والسفاهة ؟ وتزعم أنك تجهل ذلك ؟ هذا هو الغريب ! ولو تبعنا كلامك فان الشعب الروسي سيكون اكثر شعوب العالم تدينا : ان هذا كذب ! فاسس الدين هي التقوية وطاعة الله وخشيته . بينما الروسي يذكر اسم الله وهو يحك ... ويقول وهو يتحدث عن ايقونة ما : **ان قامت بعملها فذاك ، وان لم تقم به فان مهمتها هي تغطية الاوعية !** انظر الى هذا الشعب ، عن قرب ، وسترى انه شعب ، بطبيعته ، بالغ الالحاد . انه لا يزال شديد التطير ، لكن ما من أثر به للتدين . ورغم ان التطير يختفي بتقدم الحضارة ، فان الدين غالبا ما يزاوجها . ألسنا نتوفر على مثل حي : فرنسا ، حيث لا زلنا الى اليوم نجد عددا ضخما من الكاثوليكيين المخلصين بين المثقفين والمتعلمين ، وحيث الكثير من الناس يؤكدون بحرارة ، رغم ابتعادهم عن المسيحية ، وجود اله ما ؟ ان الشعب الروسي مغاير تماما ، وما التمجيد الصوفي من طبيعته . انه بالغ الرشد ، وله روح عميقة التفتح والايجابية ، وربما كان في هذا ضمان المصير الذي ينتظره . ان الورع الديني لا انتشار له بين كهنتنا أنفسهم ، وذلك لان بعض الشخصيات الاستثنائية ، التي تميزت بتنسكها البارد والتأملي ، لا تثبت شيئا . وأغلب اعضاء كهانتنا لم يتميزوا بغير استدارات كروشهم ، وبغير تحذلقهم المدرسوي (السكولاستيكي) وجهلهم المطبق . وليس لنا أن نتهم كهنتنا بالتعصب الديني ولا بالحساسية المفرطة ، بل ربما كان علينا أن نمتدح حيادهم النموذجي بخصوص الايمان . ان الورع لم ينجل عندنا الا في الشيع الخارجة ، التي تختلف روحها عن روح جماهير الشعب ، والتي لا يعتد بعددها مقارنة معه .

سوف لن استرسل معك في تقريظك البالغ للحب الذي يربط ، بحسبك ، الشعب الروسي بسادته . واقولها لك دون التواء : ان هذا التقريظ لم يحصل

له ان وجد تعاطفا ما في أي مكان ، وانه قد جعلك تسقط حتى في أعين أولئك الذين هم ، وفي ظل علاقات اخرى ، اقرب اليك من حيث توجههم . أما بخصوصي أنا ، فاترك لضميرك أن يغرقك في تأمل جمالات الاستبداد الالهية (وهو عمل مريح تماما ووافر المردود) ، فقط استمر في تأملها من **بعدك الجميل** : فهي ، من القرب ، اقل جمالا واقل مسالمة ... وسأكتفي بلفت اهتمامك الى شيء ما : ان الروح الدينية عندما تستحوذ على الاوروبي ، خاصة اذا كان كاثوليكيا ، فانها تجعل منه المتهم (بكسر الهاء) لسلطة ظالمة ، مثله في ذلك مثل أنبياء اليهود الذين ساروا مستنكرين جور وعسف اقوياء هذا العالم . أما عندنا ، فان العكس هو ما يحصل . وبمجرد ما يصيب المرض الذي يدعوه علماء النفس بـ « الهوس الديني » (releglosa mania) انسانا ما (حتى وان كان هذا الانسان كما ينبغي) حتى يبادر الى تملق الاله الارضي أكثر من الاله السماوي ، ويبالغ في ذلك الى درجة ان الاله الاول، الذى سيثيبه بطيبة خاطر على حميته الدنيئة ، ينتبه الى أن هذا سيشوه منزلته في أعين الشعب ... آه ، ان الروسي لشيطان !

اني اتذكر ايضا الفكرة التي ابنت عنها في كتابك ـ كحقيقة عظمى لا تقبل المنازعة ـ والقائلة أن معرفة القراءة والكتابة هي ، ابعد من أن تكون ذات فائدة ، مؤذية للشعب بالتاكيد . بماذا اجيبك على هذا ؟ ليغفر لك الهك البيزنطي هذه الفكرة البيزنطية التي ، وانت تودعها الورق ، لم تعرف قط ماكنت تتلفظ بـه .

بيد أنك ربما قلت : « لنسلم بانني اخطات ، وبان كل افكاري خاطئة . لكن لماذا تمنعون عني الحق في ان اخطيء ولا ترغبون في الاعتقاد باخلاص شططي ؟ » . وبما ان هذا الاتجاه لم يعد ، ومنذ وقت طويل ، جديدا في روسيا : سأرد عليك . لقد استنفذ بوراتشيك وشركاؤه الموضوع ، حتى عهد قريب . ورغم ان كتابك يتضمن ، بالتاكيد ، قدرا من الذكاء ، وحتى من الموهبة ، اكبر مما يوجد في مؤلفاتهم (الشيء الذي لا يعني ان الكتاب يتضمن الكثير لا من هذا ولا من تلك) ، فانهم قد طوروا ، في الطرف المعاكس، مذهبا يجمع بينكما بقدر اكبر من الطاقة والروح على التوالي ، ودفعوه بجسارة حتى أوصلوه الى آخر مستتبعاته . لقد وهبوا كل شيء للاله البيزنطي ، ولم يتركوا شيئا للشيطان ، في حين انك وقد انشغلت بمزج الاول بالثاني قد وقعت في تناقض مع نفسك ذاتها ، متناولا ، مثلا ، الدفاع عن بوشكين وعن الادب والمسرح ، اللذين لم يكونا ـ حسب وجهة نظرك ، ولو كنت فقط شريفا لكي تذهب مع افكارك الى نهايتها ـ ليخدما خلاص الروح باي طريقة من الطرق ، بل ان بامكانهما الاسهام ، وعلى نحو واسع ، في هلاكها ... أي ذهن ذاك الذى يستطيع أن يقبل بفكرة وجود تشابه بين غوغول وبوراتشيك ! لقد شغلت في روح الشعب الروسي مكانا أعلى من ان

يجعله يمتلك حتى مجرد القدرة على الاعتقاد باخلاص آراء مثل هذه . فما يبدو طبيعيا في نظر جماعة من البلهاء لا يمكن ان يظهر كذلك في نظر انسان نابغة . وقد قارب البعض مرحلة الاعتقاد بان كتابك كان زبدة اختلال عقلي يقارب الجنون . الا انهم ما لبثوا ان تراجعوا عن ذلك . وفعلا ، فمن الواضح ان الكتاب لم يكتب في يوم ، ولا في اسبوع ولا في شهر ، بل ربما كتب في سنة أو اثنتين أو ثلاثة ، وكل شيء يعود الى ذلك ، الى ذلك العرض المترع بالهفوات الذي يخرق التأمل ، والى ذلك الانشاد للسلطة الذي يحسن المسائل الزمنية لكاتبه الورع . لهذا ذاع في بطرسبورغ انك كتبت الكتاب على أمل أن تنصب مربيا لولي العهد . وكانت رسالتك الى أوفاروف ، التي قلت فيها بمرارة ان مؤلفاتك عن روسيا قد أسيء تفسيرها ، والتي بدوت فيها قليل الرضى عن كتاباتك السابقة وأعلنت انك لن تكون راضيا عن كتبك ما لم يرض عنها القيصر ـ لقد كانت هذه الرسالة معروفة ، ومنذ أمد ، في بطرسبورغ . والان ، أحكم نفسك بنفسك عما اذا كان ثمة مجال للاستغراب من ان كتابك قد هوى بك في روح الجمهور ككاتب ، وكانسان فوق ذلك .

وتبعا لما أراه ، فانت لا تفهم الجمهور الروسي جيدا ، هذا الجمهور الذي تحدد طبعه وضعية المجتمع الروسي وهذا المجتمع الذي تغلى فيه وتتحرق للانبثاق قوى غضة يسحقها النير المثقل وتنسد أمامها الطرق فلا تجد أمامها سوى الوهن والحزن والخمول . اننا لم نعد نجد بعضا من الحياة والتقدم في غير الادب ، وذلك على الرغم من رقابة تتزية . لهذا السبب فان لقب كاتب عندنا لقب جد مشرف ، ولهذا فانه من اسهل الامور ان يحرز المرء على نجاح أدبي حتى وان كان ذا موهبة متواضعة. لهذا السبب كان لقب شاعر عندنا ، لقب أديب ، يبز ، ومنذ زمن طويل ، أكثر كتفيات الضباط لمعانا وأكثر الالبسة العسكرية زخرفة . ولهذا فان الاهتمام الشامل ، لدينا أكثر من اي مكان آخر ، هو المكافأة لكل اتجاه يدعي ليبراليا ، حتى وان كانت موهبة صاحبه ضعيفة . ولهذا فان أعظم الموهوبين يفقدون للتو شعبيتهم ما ان يضعوا أنفسهم ، باخلاص أو عدمه ، في خدمة الارثوذوكسية والاستبدادية والقومية . ومثال بوشكين بالغ الدلالة في هذا المجال ، ذلك الرجل الذي كفاه أن يكتب قصيدة أو قصيدتين متطرفتين في الوطنية وأن يرتدي بذلة نبيل الغرفة gentilhomme de la chambre لكي يفقد في لحظة حب الشعب ! وانك لتخطيء خطأ بالغا حين تظن حقا ان اخفاق كتابك يعود ، لا الى اتجاهه البغيض ، وانما الى الحقائق العنيفة التي يتضمنها والتي أعلنتها ، حسب ما تقول ، جهارا على الملا . لنتجاوز انك تفكر في المسألة من جهة زملائك في القلم ، لكن ، حين يصبح الامر متعلقا بالجمهور فماذا تقول ! هل أطلعته على حقائق اقل مرارة واقل عنفا وبقدر اقل من الصراحة والموهبة في **المفتش وفي الارواح الميتة** ؟ الواقع ان المدرسة القديمة قد ثارت ، حينها ،

بجنون ضدك ، الا ان هذا لم يمنع **المفتش** ولا **الارواح الميتة** من النجاح ، في حين ان كتابك الاخير لم يلق ، وبشكل مخجل ، ادنى صدى ! وللجمهور الحق في ذلك : انه يرى في الكتاب الروس ، وفيهم وحدهم فقط ، أدلتـه المجندين للدفاع عنه ولانقاذه من « الاستبدادية والارثوذوكسية والقومية » . لهذا نجده دائما على استعداد لان يغفر للكاتب كتابا رديئا دون أن يمتلـك هذا الاستعداد حيال كتاب مشؤوم من كتبه . وان ذلك ليكشف عما يحتويه مجتمعنا ـ وان بشكل جنيني ـ من الفطنة الملأى بالنضارة والصحة ، وهو يبرز أن له ، من ثمة ، مستقبلا مشرقا ينتظره . ولو انك كنت تحب روسيا فستغتبط ، مثلي ، للاخفاق الذي لقيه كتابك .

وسأقول لك ، ليس بغير بعض الرضى ، انني ربما كنت أعرف الجمهور الروسي بعـض الشيء ، لقـد ارعبني كتابك بسبب التأثيـر السيء الـذي يمكن ان يمارسه على الحكومة ، على الرقابة ، وليس على الجمهور . وحين ذاع في بطرسبورغ ان الحكومة ترغب في طبع آلاف النسخ من كتابك وبيعهـا بارخص ثمن ، اعترى اصدقائي الوجوم ، لكنني قلت لهم ان هذا سيكـون عملا حسنا : اذ ان كتابـك سوف لن يصادف أدنى نجـاح وسينسى عمـا قريب . وفعلا ، فاذا كنا لا نزال نذكره اليوم ، فما ذلك الا بسبب المقالات العديدة التي اثارهـا صدوره . أجل ، ان الروسـي يمتلك احساسا عميقـا بالحقيقة ، ولو أنه احساس لم يتطور بعد بشكل كاف .

لعل تبدلك كان صادقا فعلا ، الا ان فكرة نقله الى معرفة الجمهور كانت من اتعس الافكار . لقد تجووز عصر الورع الساذج من زمن ، وحتى مجتمعنا تجاوزه . لقد أصبح يفهم ان ما من أهمية للمكان الذي يصلي المرء فيه ، وان من يذهب الى القدس بحثا عن المسيح هو فقط ذلك الشخص الذي لم يحمله قط في قلبه ، ذلك الذي أضاعه . وان الشخص القادر على المعاناة لمشهد آلام الاخرين ، والذي يشعر ، وهو يشهد اضطهـاد أناس غرباء عنـه ، بنفسـه مضطهدا بدوره ـ ان هذا الشخص ليحمل المسيح في قلبه وما من حاجة به للذهاب راجلا الى بيت المقدس . وقبل كل شيء ، فان الخشوع الذي تبشر به ليس جديدا البتة ، ثم هو يظهر ، من جهة ، كبرياء فظيعة ، ومن جهة أخرى الاذلال الاخزى للكرامة الانسانية . وان الفكرة القائلة بان على الانسان أن يصبح ما لا ادريه من كمال مجرد ، وان عليه ان يرتفع فوق الجميع بالخشوع، ليمكن ان تنتج اما عن الكبرياء واما عن البله ، وهي تقود في كلتا الحالتين ، ضرورة ، الى النفاق والتوارع والرياء . وفوق ذلك فانك سمحت لنفسك في كتابك بالتعبير ببذاءة وقحة حين حديثك لا عن الاخرين فقط (وهو أمر سوف لن يكون سوى قلة أدب) وانما عن نفسك ذاتها ، وانه لشيء منفر : فاذا كان الشخص الذي يصفع قريبه الانسان يثير السخط فان ذلك الذي يصفع نفسه لا يثير سوى الاحتقار . كلا ، ان الرؤيا لم تمسسك قط ، وانما أنت غصت

في الظلمات : انك لم تفهم مسيحية عصرنا ، لا روحا ولا ظاهرا . وليست حقيقة المذهب المسيحي هي ما يفوح من كتابك ، وانما هو خوف مرضي من الموت ، من الشيطان ومن الجحيم .

وأي لغة تلك ، اي جمل ! « **ما من انسان اليوم الا وهو امعة ونذل** » . اتظن انك تعبر باسلوب انجيلي ؟ انها لحقيقة عظمى تلك القائلة بان الذكاء والموهبة يغادران المرء حين يتعاطى للكذب . ولو ان اسمك لم يظهر على غلاف كتابك : من من الناس سيظن ان هذه القعقعة من الكلمات والجمل المفخمة التي لم يحسن ضم بعضها الى بعض **هي** من عمل كاتب **المفتش والارواح الميتة ؟**

وفيما يخصني شخصيا ، ساكررها لك : لقد أخطأت حين رأيت في مقالي التعبير عن غيظي مما قلته عني ، انا الذي انتقدتك . فلو أن هذا وحده هو ما أحنقني لكنت اكتفيت بالحديث المتبرم عنه ، ولتكلمت عن الباقي بهدوء وحياد . وصحيح أنك ، وانت تعبر بتلك الطريقة التي عبرت بها تجاه معجبيك ، قد تصرفت تصرفا سيئا على نحو مضاعف . واني افهم ان الضرورة تحتم احيانا عرك اذني ابله لا يقوم ، من خلال امداحه وتحمسه ، بغير جعل الذي يوجهها اليه سخرة في الاعين ، ولكنها ، مع ذلك ، ضرورة مضنية . اذ يصعب على الكائن البشري أن يشتري عداء بحب ، حتى وان كان هذا الحب زائفا . بيد انك تجد امام ناظريك اناسا ، وان لم يكونوا ذوي ذكاء خارق فانهم ليسوا ، بالمقابل ، بلهاء . اناسا جذبهم الاعجاب باعمالك فعبروا عنه ـ ربما ـ بالهتاف اكثر مما عبروا عنه باشياء حصيفة عاقلة ، غير أن هذا الحماس الذى بثثته فيهم كان ينبع من عين بلغ من صفائها ونبلها انها منعتك من اسقاطهم في يد اعدائهم الذين هم اعداؤك أيضا ، ومن اتهامهم ، علاوة على ذلك ، بانهم يسعون الى اعطاء اعمالك معنى لا تتضمنه . ولا شك انك قمت بذلك دون روية ، منجذبا وراء الفكرة المحورية لكتابك . الا ان فيازيمسكي (أمير الارستقراطية وخادم الادب) قد قام بتطوير فكرتك ونشر ضدا على معجبيك (اذن ضدا علي أنا في المقام الاول) نميمة بسيطة وصافية . لعله اراد من وراء ذلك التعبير عن امتنانه لك ، لانك وضعت هذا القرزام الرديء في صف عظام الشعراء ـ وهذا ، ان اسعفتني الذاكرة ، لاجل « بيوته الركيكة الزاحفة » ـ ، وكل هذا ليس ببالغ الجمال ! وان لا تكون في غير انتظار اللحظة التي تستطيع فيها أن تعطي للمعجبين بموهبتك حقهم بدورهم (بتسليمهم لاعدائك في خشوع متعجرف) ، فهذا أمر أجهله ولم يكن بمقدوري أن أعرفه ، ثم ، وأعترف بذلك ، لم يكن لي أن أصدقه . لقد كان كتابك وحده ما أضع أمامي ، وليس مقاصدك : وقد قمت بقراءته وباعادة قراءته مائة مرة ، ولم أجد فيه سوى ما يحتويه ، وان ما يحتويه قد أسخط وجرح روحي بعمق .

ولو انني اطلقت العنان لمشاعري فان هذه الرسالة ستضحى عما قريب مؤلفا ضخما . انني لم افكر قط في مكاتبتك حول هذا الموضوع ، رغم انني كنت معذبا بالرغبة في أن أفعل ، ومع انك اعطيت لكل فرد ، يضع نصب عينيه الحقيقية وحدها ، الحق في أن يكتب اليك دون رسميات ولم يكن بمقدوري أن أفعل ذلك في روسيا ، بسبب ان « الشبيكينات » (1) هناك ينتهكون رسائل الغير ، ليس فقط ارضاء لرغباتهم ، بل وخضوعا للمصلحة ولاهداف وشائية .

لقد ارغمتني بدايات سل رئوي هذا الصيف على مغادرة البلاد الى الخارج ، وقد بعث نيكراسوف برسالتك الي في سالزبرون التي سأغادرها اليوم بالذات الى باريس مرورا بفرانكفورت (سير ـ لو ـ مان) . ان رسالتك، التي لم اكن انتظرها ، لتسمح لي اخيرا ان أقول لك كل ما تراكم في قلبي ضدك بخصوص كتابك ، وانا لا احسن قول بعض الاشياء وترك البعض الآخر ، كما لا اعرف اللف والدوران ، وليس كل ذلك من طبيعتي . لتكتشف انت نفسك أو ليظهر لك الزمن انني اخطات في الخلاصات التي خرجت بها عنك ، وسوف اكون أول من يسر بذلك ، الا انني سوف لن اندم قط عما قلته لك . وان الامر هنا لا يتعلق لا بشخصك ولا بشخصي ، وانما بشيء اهم مني ومنك بما لا يقدر : ان الامر يتعلق بالحقيقة ، بالمجتمع الروسي ، بروسيا . وفي نهاية كلامي ، هذه كلمتي الاخيرة : اذا كنت قد أصبت بذلك البؤس الذي دفعك الى انكار اعمالك العظيمة ، وبخشوع كبريائي ، فان عليك الآن ، وبخشوع مخلص ، ان تتنكر لكتابك الاخير ، وتكفر عن الخطأ الفادح الذي ارتكبته حين نشرته ، باعمال جديدة تذكرنا باعمالك القديمة .

•

سالزبرون ، 15 يوليوز 1847

---

(1) شبيكين هو احدى شخصيات « **المفتش** » لغوغول .